رحلة في صميم عقل السلفية الجهادية «القاعدة نموذجا» (الاخيرة)

هناك اهتمام متصاعد من قبل «القاعدة» بالقضية الفلسطينية مما يؤشر الى نقل نشاطها الى بلاد الشام ثمة شعور بتحرك القاعدة على قدم وساق في المنطقة وتصريحات الرئيس الفلسطيني هي صيحة تحذير

د. أكرم حجازي*

يعزف المرء أحيانا عن الخوض في بعض المواضيع ذات الطبيعة الحساسة خشية المتاعب التي قد يلاقيها أو لأن المواضيع ذاتها على درجة من الغموض بحيث يغدو التعرض لها نوع من المغامرة العلمية والأخلاقية. يستحضرني في هذا السياق كثرة الحديث عما يسمى بـ «استراتيجية القاعدة» وسيل التصريحات المتعلقة بوصول أو قرب وصول القاعدة إلى غزة والضفة الغربية، ولكن ما لفت الانتباه تلك التصريحات النارية التي أدلى بها الرئيس الفلسطيني محمود عباس (2006/3/2) مستندا إلى معلومات استخبارية فلسطينية تشير إلى وجود تنظيم القاعدة في المناطق الفلسطينية لاسيما غزة والضفة الغربية على حد السواء، ولا شك أن المخاوف الإسرائيلية من تسرب تنظيم القاعدة إلى فلسطين لها ما يبررها باعتباره تنظيما يثير فزعا من نوع ما على هذه الدولة/ إسرائيل التي تحسب لكل صغيرة وكبيرة وتَحْسَبُ أنها مهددة في وجودها على الدوام بسبب النشأة الشاذة التي رافقت ظهورها في قلب العالم العربي والإسلامي، ولكن، أن تكون الخشية الفلسطينية على لسان الرئيس ترقى إلى استعمال عبارات مرعبة من نوع «تخريب المنطقة» فهي مسألة تدعو إلى التأمل بقطع النظر عن اتفاقنا مع الرجل أو اختلافنا معه، فإذا ما صحت تحليلاتنا القادمة فإن كلمة «تخريب» ستغدو بائسة لما يمكن أن تتعرض له المنطقة.

ويبدو أن الوقت قد حان لاستطلاع ما يسمى بـ «استراتيجية القاعدة»، والتفتيش عن محتوى «التخريب» المزعوم ومداه حتى لا تبقى المسألة، وبلا مسؤولية، حبيسة لتكهنات البعض من أولئك الذين تقدمهم بعض وسائل الإعلام بصفة «باحث أو خبير في الحركات الجهادية» ويظنون، عبثا، أنهم كذلك، أو أولئك الذين يقدمون خدماتهم في الكتابة والبحث عن القاعدة حتى بدوا لكتاب آخرين متطفلين وكأنهم في موسم تسوق مهمتهم تنظيم جولات من السياحة الإعلامية للراغبين بها من الإعلام المحلي أو الدولي. يحدث هذا في وقت يبدو فيه العالمين العربي والإسلامي واقعين في حالة فريدة وغير مسبوقة في التاريخ من انعدام الوزن.

■ لقد سبق القول أن القاعدة تنظيم يستقي توجيهاته من المصادر السلفية الأربعة ويستعمل السلفية بوصفها منهجاً في التفكير والعمل، والسؤال الجوهري الذي سنطرحه يقول: ماذا يقدم المنطق السلفي بالنسبة لفلسطين؟ بل هل يمكن للقاعدة أن تفكر في فلسطين بغير المنطق السلفي؟

1) المحتوى الديني وتطبيقاته

في الحقيقة يصعب القول أن يكون التفكير في فلسطين واقعا خارج المنطق السلفي المزدحم في التوجيهات العقدية. ففي القرآن الكريم ثمة عشرات الآيات التي تتحدث عن اليهود والنصارى وموالاة المشركين والكفار، أما عن فلسطين فثمة سور كاملة وليس آيات فقط، ومن ذلك:

أ. الأرض المباركة

ـ قوله تعالى في قصة موسى: (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ {137}، الأعراف). فقد أورث بني إسرائيل مشارق أرض الشام ومغاربها بعد أن غرق فرعون في اليم.

ـ وقوله في قصة الإسراء: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ{1})، الإسراء.

ـ وقوله في قصة إبراهيم: (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ {70}وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ {71})، الأنبياء. ولقد نجّى الله إبراهيم ولوطا إلى أرض الشام من أرض الجزيرة والعراق.

ـ وقوله تعالى: (ولِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ {81})، الأنبياء. و إنما كانت تجري إلى أرض الشام التي فيها مملكة سليمان.

ـ وقوله تعالى في قصة سبأ: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ {18})، سبأ. وهو ما كان بين اليمن حيث مساكن سبأ وبين قرى الشام من العمارة القديمة.

ولو تتبعنا الأحاديث النبوية عن الأرض المباركة لوجدنا أن عشرات الأحاديث تختص بمنطقتين شملتهما بركة الله ما لم تشمل أية مناطق أخرى فيما عدا مكة والمدينة. هاتان المنطقتان هما الشام بما فيها بيت المقدس واليمن. ومن مضمون الأحاديث سنلاحظ أن لفظة البركة توسطت قلب الرواية ومثلت عصبها، وهذا يؤشر على أن اللفظة صعبة الإحاطة بما أنها تشتمل على دلالات عمومية بحيث يمكن إسقاطها على البشر والمكان والتضاريس والطبيعة والاعتقاد والإيمان والأمن والغذاء وكل ما يمكن تصوره ... إلخ

. فضائل الشام واليمن

أما عن الأحاديث النبوية الشريفة فقد وردت في روايات عديدة مفسرة وموضحة بعضها ونذكر منها دون تكرار فيما يتعلق باختلاف الروايات إلا ما وجب، ومنها:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «سَيَصِيرُ الأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُوداً مُجَنَّدَةً جُنْدٌ بِالشَّامِ وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ خِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكَتْ ذَلِكَ فَقَالَ عَلَيْكَ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللَّهِ مِنْ أَرْضِهِ يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِيَمَنِكُمْ وَاسْقُوا مِنْ غُدُرِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَ أَهْلِهِ». قال ربيعة: فسمعت أبا إدريس يحدث بهذا الحديث يقول: ومن تكفل الله به فلا ضيعة عليه.

وروى البخاري: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قال: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا». وروى أبو داوود: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: « إِنَّ فُسْطَاطَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ بِالْغُوطَةِ إِلَى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشَّامِ».

وروى الترمذي عن رَسُولُ اللَّهِ أنه قَالَ: « إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلَا خَيْرَ فِيكُمْ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

وعَنْ زَيْدِ بْنِ ثابت قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ طُوبَى لِلشَّامِ فَقُلْنَا: لأَيِّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا».

وفي رواية أخرى عن زيد بن ثابت: ... «إن الرحمن لباسط رحمته عليه»، وأخرج ابن ماجة والحاكم وصححه وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله يقول: « إِذَا وَقَعَتِ الْمَلَاحِمُ خَرَجَ بَعْثٌ مِنَ الْمَوَالِي من دِمَشْقَ هُمْ أَكْرَمُ الْعُرَبِ فَرَسًا وَ أَجْوَدُهُمْ سِلَاحاً يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهِمْ هَذَا الدِّينَ».

وعن عبد الله بن عمرو رَضِي الله عنهما قال: قال رسول الله : «إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي فنظرت فإذا هو نور ساطع عمد به إلى الشام ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام».

وعن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله : «ستخرج نار في آخر الزمان من حضرموت تحشر الناس قلنا: بما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: عليكم بالشام». وأخرج السيوطي والطبراني أن رَسُولُ اللَّهِ قال: «عَقْرُ دارِ الإسلامِ بالشام».

وعن ابن عمر أن رسول الله قال: «اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا.. فقال رجل: وفي شرقنا يا رسول الله، فقال.... اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا... فقال رجل: وفي مشرقنا يا رسول الله، اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا، إن من هنالك يطلع قرن الشيطان وبه تسعة أعشار الكفر وبه الداء العضال».

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله : «?لا يزال أربعون رجلاً من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم، يدفع الله بهم عن أهل الأرض، يقال لهم.. الأبدال».

وعن شريح بن عبيد قال... ذكر أهل الشام عند علي وهو بالعراق، فقالوا... العنهم يا أمير المؤمنين، قال: لا إني سمعت رسول الله يقول.. »، البدلاء بالشام، وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً يستقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب».

ج. فضائل بيت المقدس

أما فيما يتعلق ببيت المقدس والشام حصرا فما يعنينا هي الأحاديث التالية:

قال رسول الله : «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك. قال: يا رسول الله وأين هم؟ قال: بيت المقدس وأكناف بيت المقدس».

وعن أبي هريرة عن النبي قال: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وما حوله، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله، لا يضرهم خذلان من خذلهم، ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة».

وعن معاذ بن جبل قال: «وهم بالشام»، وفي تاريخ البخاري مرفوعا قال: «وهم بدمشق»، وفي صحيح مسلم عن النبي أنه قال: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»، وقال أحمد بن حنبل: أهل المغرب هم أهل الشام وهم كما قال: لوجهين، أحدهما أن لا في سائر الحديث بيان أنهم أهل الشام، وثانيهما أن لغة النبي وأهل مدينته في أهل المشرق هم أهل نجد والعراق، وكان أهل المدينة يسمون الأوزاعي إمام أهل الغرب، و يسمون الثوري شرقيا من أهل الشرق، ومن ذلك أنها خيرة الله في الأرض وأن أهلها خيرة الله وخيرة أهل الأرض.

ومثل هذه النصوص القرآنية أو الأحاديث النبوية لا يمكن إلا أن تجدها معروضة وموثقة ومسندة ومشروحة ومعللا عليها في أية محاولة للتيار الجهادي وللقاعدة لتشريع قتال اليهود والصليبيين سواء كانت بحثا أو مقالا أو خطبة أو توجيها أو رسالة صوتية أو مرئية. والسؤال الحاسم الآن هو: كيف توظف القاعدة المحتوى الديني للوصول إلى فلسطين؟

من الأفكار المركزية التي تبرر للقاعدة وجودها وتبنيها للمواجهة مع ما تعتبره قوى الظلم والكفر العالمين هو دفاعها بالدرجة الأساس عن دين الله قبل عباد الله، ولهذا فالجهاد بالنسبة لها هو عبادة وفريضة متعينة في هذه الأيام لنصرة الدين ورد العدو الصائل في ديار المسلمين ورفع الظلم عن المستضعفين كما تقول.

وفي هذا السياق بالضبط تجيء أحاديث فضائل الشام كمنطلق للحشد والرباط والجهاد باعتبار الشام موطن البركة والأمن ونصرة الدين مثلما هي أيضا موطن الطائفة المنصورة. ولأننا في صلب المحتوى الديني سنلاحظ ما يلي:

* إن الأحاديث النبوية تحدثت عن ثلاثة أجناد محددة هي جند الشام وجند اليمن وجند العراق.

* كما أن الأحاديث باركت في اليمن والشام ولكنها فيما يخص القتال والنصرة وخيرة بني البشر ركزت على الشام وبيت المقدس دون غيرهما.

* كما أن الأحاديث اختصت الشام برحمة الله وكفالته وفي رواية أخرى بحماية الملائكة لها.

* كما أن الأحاديث تبشر بالشام كملجأ آمن حيت تقع الفتن والملاحم.

* كما أن الأحاديث تثبت أن الشام تحوز سنة التدافع الإنساني، بمعنى أن التغيير المحتمل ينطلق منها قبل غيرها.

وفي الحقيقة يمكن الإشارة إلى الكثير مما يذكره مفكرو القاعدة أو أنصارها فيما يتعلق بمواطن البركة في هذه المناطق. فهل يعني هذا أن الشام واقعة لا محالة في صلب عقل القاعدة كمنطلق قادم للعمل؟ يبدو الأمر كذلك وفي الصميم، وإلا فما قيمة هذه الأحاديث إن لم يُعمَل بها؟ ففي وثيقتها الشهيرة يتبين أن القاعدة تحضّر في المرحلة الثالثة منها والمسماة بـ «مرحلة النهوض والوقوف على القدمين» لإحداث «نقلة نوعية مهمة في عملية التغير في المنطقة المحيطة بالعراق، حيث سيتم التركيز في البداية على الشام، وان اختيار الشام لم يكن عشوائياً بالنسبة لهم، فهم يستندون إلى الأحاديث النبوية الصحيحة التي وردت عن الرسول ، تتحدث عن حصار الشام بعد العراق». وبطبيعة الحال لا تغفل الوثيقة الدور الذي ستلعبه طلائع جند الشام التي تتهيأ لشن هجمات داخل سورية حاليا، وهو ما نشهد بواكيره الأولى منذ نحو عام على الأقل.

وحين التحري عن استراتيجية القاعدة، وفقا للمرحلة الثانية (فتح العيون 2003ـ2006) من خطتها المعلنة، سنلحظ مزيدا من الوضوح في التركيز على تحقيق هدفين مركزيين حين يتعلق الأمر بفلسطين:

الأول: تتوجه فيه القاعدة إلى تحقيق المزيد من الحشد والرباط في المناطق المحيطة ببيت المقدس تأسيسا على ما تراه وثيقة الاستراتيجيا بأن القاعدة ستغدو تيارا جامحا يصعب القضاء عليه.

الثاني: يبدو هدفا احترازيا ومشروطا بتحقق أحد شقيه أولا، فإذا تفتحت عيون المسلمين على واقعهم الذي آلوا إليه وازداد التيار توسعاً وانتشاراً وقوة حينها يبدأ الاشتباك المباشر مع دولة اليهود في فلسطين. وهذا يعني أن استهداف فلسطين تنظيميا أو فكريا من قبل القاعدة سيمثل مقدمة تمهد لبدء الاشتباك مع إسرائيل. وهذه مسألة وعرة للقاعدة، ولكن لا مفر منها لسببين على الأقل:

1) إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن سلفية القاعدة تحتم عليها الاسترشاد بالنص القرآني36 من حيث الإعداد أولا وقبل بدء المواجهة.

2) ولأن القدس واقعة في قلب حولية الصراع باعتبارها موطن الخلافة القادمة وفقا للحديث النبوي الشريف. إذ يلاحظ من الخريطة أدناه أن بلاد الشام وفيها القدس تقعان في وسط المنطقة المستهدفة بـ «التخريب» وتظهر الأكناف المباركة لتشمل بالإضافة لهما مناطق الصراع الواقعة شمال الجزيرة العربية، بعيدا عن منطقة نجد التي يطلع منها قرن الشيطان، وتركيا ومصر والعراق وحواف الشمال الغربي لإيران وأقصى حواف الشمال الشرقي للسودان وحواف من الشمال الشرقي لليبيا وقبرص وبحر إيجة وأطراف من جنوب أوروبا.

ومن الواضح أن منطقة الحشد والرباط في بلاد الشام تقع في قلب منطقة الصراع التي تبدو أوسع منها ما يعني أن المواجهة القادمة بين التيار الجهادي السلفي ونموذجه القاعدة سيطول دولا وشعوبا لطالما اعتبرت نفسها بعيدة عن ساحة الصراع المباشر أو أنها اكتفت بمواقف سياسية أو أيديولوجية أو تقديم دعم مالي. والتفكير في مثل هذا الأمر سيعني قطعا توريط وجر الكثير من القوى والشعوب والدول إلى ساحة الصراع بطريقة تؤدي فعلا إلى إيقاع «تخريب» فعلي تصعب السيطرة عليه.

خريطة حولية الصراع وفق المحتوى الديني

تبقى اليمن بطبيعة الحال كأرض مباركة وأحد الأجناد الثلاثة، ولكنها غابت عن محتويات الوثيقة ووقعت خارج حولية الصراع بالرغم من حضورها الكثيف جدا في الأدبيات النظرية والميدانية للقاعدة ولا ندري حقيقة سببا لذلك. فقد بذل أسامة بن لادن جهودا جبارة لإطلاق شرارة المواجهة في اليمن ضد السلطة الشيوعية في الشطر الجنوبي قبل الوحدة وبعدها ضد السلطة المركزية بقيادة علي عبد الله صالح. وكانت أبرز المحاولات تلك التي تزعمها أبو الحسن المحضار سنة 1998 في قيادته لجيش عدن أبين تيمنا بالحديث النبوي الشريف عن ابن عباس قال، قال رسول الله : « يخرج من عدن أبين اثنا عشر ألفاً ينصرون الله ورسوله هم خير من بيني وبينهم". إلا أن جهود الرجلين فشلت وانتهت تجربة المحضار بإعدامه صيف العام 2000.

غير أن ما لم تُفصَل به الوثيقة، والتي لم تتعرض في واقع الأمر لكل بلد بعينه، خص له أبو مصعب السوري عشرات الصفحات التي تخص أهل اليمن تحديدا والمطلوب منهم لنصرة المقدسات الإسلامية، واقترح معادلة زحف ميداني تتكامل فيه جهود القوى بين أهل الشام وأهل اليمن فقال مخاطبا:

«عليكم أهل اليمن المباركة أن تيمموا وجوههم شطر مكة فالمدينة فالقدس، كما أن علينا أهل الشام المباركة أن نيمم وجوهنا شطر القدس فالمدينة فمكة، ولتلتق في ساحة الميدان رايات أهل الجهاد العازمين الثابتين والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

من الواضح أن السوري كمؤصل للعقيدة القتالية للتيار الجهادي لم يفته التذكير بأن اليمن المباركة تمثل بالنسبة للجزيرة العربية المخزن البشري الهائل والجغرافيا المواتية لانطلاقة جهادية، والأهم من ذلك أنها نقطة انطلاق مركزية في دفع الصائل عن بلاد المسلمين مثلما هي الشام بالضبط، فعلى كليهما إذن تقع مسؤولية النصرة والمدد والمبادرة. فحين تكون المبادرة بيد أهل الشام يكون الزحف باتجاه القدس أولا ثم المدينة حيث تجمع الأنصار ثم «الفتح الجديد» لمكة، وحين تكون المبادرة بيد أهل اليمن يكون الزحف باتجاه مكة أولا ثم المدينة حيث الأنصار ثم الزحف نحو القدس.

2) حقيقة القاعدة في فلسطين؟

لقد قتل الزرقاوي أخيرا، وهذه حقيقة، فالرجل نال ما سعى إليه. بيد أن الافتراض بأن مقتل الزرقاوي أو الظواهري أو حتى بن لادن أو اعتقال هذا القائد أو ذاك، أو غياب أحد الفاعلين في التنظيم سيعيق مشروع القاعدة هو افتراض خاطئ، ولم تقل به حتى الولايات المتحدة ذاتها. فالقاعدة تنظيم يقع خارج الذاتية وخارج المؤسسة، ولأنه بات فكرة أكثر منه تنظيما فلم تعد الفكرة ملكا لأحد ولا حتى للتسمية بقدر ما هي ملك لكل من يؤمن بها ويعمل عليها. والسؤال هو: هل القاعدة في فلسطين حقيقة؟

ثمة فرضيتين مبدئيتين للإجابة على السؤال، إحداهما تؤكد والأخرى تنفي. ولأنه ليس لدينا ما يؤكد أو ينفي سنلجأ إلى تحري المسألة ومن ثم مناقشتها.

فمنذ نحو سنتين أو أقل تتناقل وسائل الإعلام بين الفينة والأخرى تصريحات لمسؤولين إسرائيليين يتحدثون فيها عن اختراق حققته القاعدة في فلسطين وتحديدا في المناطق الجنوبية من قطاع غزة وخاصة منطقتي رفح وخانيونس. وقد أخذت هذه التصريحات والمقالات تزداد ضراوة مع خروج القوات الإسرائيلية من غزة بشكل مفاجئ وغداة تسلم السلطة الفلسطينية للمعابر على قطاع غزة حيث حدث نوع من الفوضى تسببت بتداخل سكاني يقدر بالآلاف على جانبي المعابر الحدودية بين مصر وغزة، وقيل بعدها ان بعض العناصر من القاعدة تسربت أو ربما تكون قد تسربت إلى القطاع قادمة من سيناء. ثم وبعد تفجيرات وقعت في بعض الأماكن السياحية في منتجع دهب المصري أعلن مسؤولون مصريون أن أحد المنفذين أو أكثر تلقى تدريبات في غزة دون أن يحدد هويته أو الجهة التي تلقى عندها التدريب وتَنَعَّمَ بحمايتها.

لا شك أن مثل هذه التصريحات أثارت الطرف الفلسطيني وأطراف المقاومة التي شعرت وكأنها مستهدفة بشكل مباشر لا سيما وأن الشعب الفلسطيني يعيش حالة من الحصار الشامل والذي تشارك فيه دول عربية بصفة مباشرة أو غير مباشرة. لذا ما زالت تتبلور قناعات لدى عامة الناس أن المقصود بهذه التلفيقات هو سلاح المقاومة أيا كان حامله وأيا كان التنظيم التابع له، وأن مؤامرة تدبر ضد الفلسطينيين لوصمهم بالإرهاب وتجنيد الرأي العام العالمي ضدهم كي لا يأسف عليهم أحد إذا ما أوغلت فيهم إسرائيل قتلا وتدميرا وتصفية، وقررت وبعض القوى الفلسطينية والعربية التخلص من المقاومة كبنية وكفلسفة وتمرير مشروع حل يهدئ من غليان المنطقة ولو لأمد منظور. لذا ينكر بعض الفلسطينيين أي وجود للقاعدة، ويُظهرون مشاعر قلق بالغة لديهم من قادم الأيام.

ولكن ثمة فرضية أخرى أشد خطورة تقف على النقيض مما ذكر. فالمعلومات تشير إلى أن الرئيس الفلسطيني محمود عباس تلقى تقريرا من أحد كبار ضباط أمنه كشف فيه عن وجود فعلي لخلية من القاعدة ترتبط بخلية في أستراليا ولا يتجاوز عدد أفرادها أصابع اليدين. وأن هذه المعلومات هي التي دفعت الرئيس إلى التحذير من وصول القاعدة إلى فلسطين، وأن مثل هذا الأمر إن حدث سوف يؤدي إلى تخريب المنطقة. والملاحظ أن التصريح ينطوي إما على مبالغة في تقدير المخاطر من قبل أجهزة الأمن الفلسطينية، وإما حقيقة يخشى من نتائجها. فما هي المشكلة؟

المشكلة الأولى تبدأ من لحظة انهيار الاتحاد السوفييتي مطلع التسعينات من القرن الماضي، حيث بات مخزون الأسلحة التكتيكية الفتاكة في مهب الريح، وأن السوق السوداء التي انتعشت آنذاك يخشى أن يكون للقاعدة فيها موطئ قدم. وقد عبرت العديد من القوى العالمية آنذاك عن خشيتها من وصول أسلحة دمار شامل لأيدي الجماعات الإرهابية والمتطرفة وبالتأكيد من بينها القاعدة.

أما المشكلة الثانية فتبدأ من عند القاعدة ذاتها التي ربما تكون وضعت في خططها إنتاج أسلحة بيولوجية أو كيماوية ولو بدائية، وهو ما شاع إبان الهجوم الأمريكي على مدينة الفلوجة العراقية وما تبعها من تهديدات نسبت إلى القاعدة باستخدام أسلحة كيماوية لتحقيق ردع ضد القوات الأمريكية والحليفة لها ردا على حملات الإبادة التي تتعرض لها. ولكن لا القاعدة نفذت تهديداتها ولا القوات الأمريكية أعلنت عن تعرضها لأسلحة فتاكة بل على العكس فالقوات المهاجمة هي من استعمل الأسلحة الكيماوية مثل الفوسفور الأبيض.

وعلى الرغم من أن المشكلتين تقعان في صلب الاحتمالات إلا أن الخطر قائم. ففي البيان الصحفي الذي أعلنه أبو مصعب السوري قبيل اعتقاله ردا على اتهامه بأنه أحد مخططي هجمات سبتمبر ولندن ومدريد وما إلى ذلك من اتهامات شدد السوري على براءته منها رغم إشادته بها، بل تمنى لو أن هجمات سبتمبر تضمنت أسلحة دمار شامل لإيقاع أكبر الخسائر في الجانب الأمريكي. ولا شك أن الأمنية تبقى أمنية، ولكن السوري لم يكن مجرد مؤرخ أو محلل أو كاتب بقدر ما كان مدربا ومشرعا ومخططا ومحرضا. ولا أحد يعرف حتى اللحظة ما الذي خلفه هذا الرجل وراءه.

رب سائل يسأل: ما الذي يعنينا من هذا الكلام؟

نقول الكثير. فهو يعني بتعبير الرئيس الفلسطيني «تخريب المنطقة». وقد كنا طرحنا سؤالا منكرا فيما سبق لما قلنا: ما الذي يمكن أن تفعله القاعدة في فلسطين ضد إسرائيل ولم تفعله الأجنحة العسكرية المختلفة على امتداد عقود؟ وكيف للقاعدة أن تكون موجودة في منطقة تشهد زحاما في البنادق قاربت على الفتك بنفسها؟ نتساءل ونحن نعتقد بأن حملة اعتقال إسرائيلية عشوائية واحدة قد تكسر كل مخططات القاعدة، فلماذا تغامر بوجود غير مأمون إن لم يكن بمقْتَل؟

والجواب هو أن تلجأ إلى ما هو غير مألوف أو متوقع بحيث يؤدي تدخلها إلى حدوث فارق مميز في المواجهة مع إسرائيل. هكذا يمكن أن يتقبلها المجتمع الفلسطيني المتعطش للخلاص بنفس القدر الذي يتعطش فيه للثأر، وحتى تنظيماته المسلحة قد ترغم على تقبلها دون حساسية كبيرة مثلما أرغمت المنظمات الفدائية من قبل على تقبل حركة حماس والجهاد الإسلامي ولجان المقاومة الشعبية. فإذا كانت المنظمات الفدائية والجماعات الإسلامية قد استعملت أسلوب الهجمات الخاطفة على المعسكرات والجنود والمستوطنات أو أسلوب السكاكين ومن ثم الحجارة والعمليات الاستشهادية والعبوات الناسفة والقاذفات المضادة للدروع مخلفة في أفضل الأحوال خسائر بشرية لا تتعدى بضعة أفراد وبضعة أضعاف من الجرحى فلا يعتقدن أحد أن القاعدة ستحضر إلى فلسطين لتلقي الحجارة على بني صهيون أو تتباهى باستعراضات الأسلحة والقوة هنا وهناك لتحقق مكسبا سياسيا أو مجدا سافرا.

فنحن لن نواجه تنظيما استعراضيا بقدر ما هو تنظيم يؤمن بأنه يمارس عبادة يتقرب بها إلى الله، ولا نستبعد في مثل هذه الحالة أن يلجأ إلى التميز باستخدام وسائل قتالية ذات تدمير عال أو على الأقل إيقاع خسائر بشرية جسيمة قد تفقد إسرائيل صوابها فعلا كما حصل مع الولايات المتحدة. هنا بالضبط مكمن الخطر حيث ستكون المنطقة في فوضى عارمة لا أحد يمكن أن يتكهن بمدى التخريب الذي قد يلحق بها. ولكن متى؟ سؤال يستحق التوقف عنده.

بطبيعة الحال ليست لدينا سوى مؤشرات توفرها لنا استراتيجيتها ذات البعد الديني ووثيقة استراتيجيا القاعدة التي أشرنا إليها والواقع على الأرض. وهذه الأخيرة تؤشر على أن القاعدة ربما تكون فعلا قد قامت باستطلاعات لفلسطين وهو أمر غير مؤكد بما أن ما أعلن عن وجود معتقلين هي مجرد شكوك بأنهم متحمسون أو مناصرون لفكر القاعدة وهذه ليست تهمة بما أن الكثير من الناس تعتريه عواطف جياشة ما ان يسمع بخبر لعملية ناجحة نفذتها القاعدة هنا أو هناك، كما أن تهمة من هذا النوع قائمة على المناصرة ليست بذات جدوى على اعتبار أن المتهمين ليسوا في واقع الأمر منتمين ولا فاعلين ولا عضويين وبالتالي فما من معلومات متوفرة يمكن أن يسترشد بها الباحث. لكن ملاحظة:

* سلسلة من الهجمات تضرب منتجعات سياحية بعضها يؤمه السياح اليهود في سيناء ورباط بسلسلة جبال وعرة تقول المصادر عنها: «أن ما يقارب 20 بالمئة من مساحة 61 ألف كيلو متر مربع من سيناء، من الممكن اعتبارها بمثابة قلعة حصينة للحركة الجهادية العالمية. ويذكر هنا على وجه الخصوص، المناطق الشمالية، تلك المحيطة بالجبال المغلقة، التي يتعذر الوصول اليها، ومنها جبل هلال، بحيث تكون خارج سيطرة قوات الامن المصرية، التي فقدت العديد من الضباط والجنود في الصدامات التي وقعت في الخريف الماضي وما بعد».

* وهجمات أخرى في قلب العاصمة الأردنية، وأخرى تنطلق من أقصى الجنوب على حافة التماس مع إسرائيل؛

* وهجمات سريعة ومفاجئة في سورية؛

* وحشد ورباط في جنوب لبنان وفي منطقة النبطية على مقربة من إصبع الجليل شمالي فلسطين؛

* وحرب مستعر أوارها منذ ما يزيد عن ثلاث سنوات في العراق.

* وتقدم هجومي ملحوظ لطالبان والقاعدة في أفغانستان،

* وانضمام حكمتيار إلى القاعدة وطالبان كخصم عنيد وصاحب بنية تنظيمية وتسليحية وتدريبية واستخبارية ممتازة ورثها عن حرب تحرير أفغانستان؛

كل هذا يجعل المرء يستنتج بسهولة أن مد تنظيم القاعدة المتصاعد، وهو يضع فلسطين نصب العين والدين، يؤشر بداية على سعي فعلي نحو بلاد الشام أو ما يعرف بدول الطوق تاريخيا أملا:

* إما بتحقيق احتلالات أمريكية أو إسرائيلية جديدة تقلب كل الموازين والأوضاع وتصب في صالح استراتيجيتها الباحثة عن توسيع ساحة المواجهة.

* وإما بإضعاف الحكومات وتحقيق اختراقات تنظيمية واسعة، وانتشار على مستوى الجمهور كمقدمة للتوجه نحو فلسطين.

وفي كلتا الحالتين ثمة شعور بتحرك ما يجري على قدم وساق في المنطقة، ومن المستحسن أن نفهم تصريح الرئيس الفلسطيني باعتباره صيحة تحذير وليس واقعاً فقط، فمن المألوف عن عمل القاعدة أنها تتمتع بتخطيط وإعداد صارمين وسرية عالية قبل الإقدام على خطوة فاشلة قد تفقدها أكثر مما تربحها.

في خلاصة سريعة يمكن القول في نقطتين مركزيتين:

* إن تنظيم القاعدة بات تنظيما فريدا في الساحة العالمية، لا يزال يظهر بمظهر المدافع عن الإسلام والساعي إلى نصرة الدين والأمة وإحقاق العدل. أما فرادته عن باقي التنظيمات الجهادية فتكمن في كونه الجماعة الإسلامية المسلحة الأولى، بعد انهيار الخلافة وتقسيم الوطن العربي، التي جاهرت بعملها وأهدافها لتبلغ ديار الإسلام ومصالح الأمة الإسلامية وليس حدود القطر أو مصالح الشعب. هذه الخصيصة للقاعدة كمجموعة تنظيمات أو تيارات أو خلايا ذات أفكار مماثلة جذبت إليها الكثير من الشرائح الاجتماعية لها، على اختلاف مستوياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وفي مختلف أنحاء العالم الإسلامي لاسيما تلك الجماعات التي تشعر منذ زمن أنها تتعرض لخديعة تتعاظم يوما بعد يوم في ساستها وقادتها ودينها ورموزها وأوطانها وحقوقها وكرامتها وأقدس مقدساتها ولم يتبق لها ما تراهن عليه ولا ما تخسره.

* ان القاعدة حاضرة على مستوى الفكر والتأييد والتعاطف والحماس في أوساط الشعب الفلسطيني لاسيما في الضفة الغربية وغزة، وهذا يعني أنها قاب قوسين أو أدنى من الحضور التنظيمي خاصة أن الساحة تعج بثقافة جهادية عريقة ورفيعة المستوى ولا بد لها من موقف في ساعة الحسم. كما أن الساحة مثقلة بالهزائم والضغوط رغم أنها تعج بالكفاءات والخبراء في التصنيع العسكري للأسلحة والمتفجرات بطريقة لم يسبق أن عهدها الفلسطينيون ولم تعد خافية على أحد ولا صعبة الوصول إليها وهو ما تحتاجه القاعدة ويسهل عملها، فضلا عن توفر خبراء في الإنترنت والرصد والمتابعة والترجمة يمكن ملاحظتهم في المنتديات وهم يبعثون برسائل تعاطف للقاعدة.

ومن الواضح أن مثل هذه البيئة كافية، في المرحلة الأولى، لإحداث تعاون غير مباشر مع القاعدة أو تماه مع أفكارها وطريقة العمل، ويستحضرنا في هذا السياق العملية النوعية التي نفذتها ثلاثة أجنحة مسلحة ضد قاعدة حربية إسرائيلية (2006/6/25) كان «جيش الإسلام» أبرزها وهي تسمية غير مألو